(١)

الاسلام والعلم

سألنى زميل لى لماذا أنت مسلم فقلت أنا مسلم لأننى إنسان أعتز بإنسانيتى، وأؤمن بالدين الذى يعترف بوجودى كإنسان، ويحترم الإنسان من حيث أنه إنسان مهما كانت ديانته وعقيدته، كما أننى أعلم علم اليقين أننى كائن حى كائن يعيش فى هذا الوجود خلقه وأوجده من خلق وأنشأ ذلك الوجود.

وهذه قضية منطقية واضحة لا تحتاج إلى برهان ولا تحتاج إلى دليل أو دفاع لأنه لا يمكن أن يوجد فى هذا الوجود موجود دون أن يكون له صانع أو خالق يبعثه من العدم ثم يقول له كن فيكون.

هكذا تعلمنا، وهكذا يحدثنا المنطق السليم أن فاقد الشئ لا يعطيه كما يحدثنا العلم المبنى على الدراسة والتجربة أن الكائنات الحية لا تنشأ من العدم، بل تنشأ من كائنات حية أخرى وأن نظرية «التوالد الذاتى» التى كانت تسيطر على الأذهان حتى القرن السابع عشر الميلادى حيث استطاع (دوى) ذلك العالم الايطالى أن يثبت أن ذباب اللحم الذى يظهر عليه إذا ترك مدة من الزمن لا ينشأ من اللحم، كما كان يعتقد فى ذلك الوقت، أو كما كانت تقول نظرية التوالد الذاتى.

ثم تمكن باستير (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) أن يثبت بالدليل القاطع أن الحياة لا تأتى من العدم بل تأتى من كائنات حية أخرى، وأنه من الممكن أن يحتفظ بالمواد العضوية

بعد تعقيمها إلى ما لا نهاية دون أن يتطرق إليها الفساد، ودون أن ينمو عليها أى فطر بكتيريا أو أى نوع من أنواع الكائنات الحية الدقيقة.

وهنا يتجلى أمام العالم المتفهم لشئون الحياة، والذى هو على علم ببعض أسرارها أن الحياة لا تنشأ إلا من كائنات حية أخرى وأنه لابد وأن يكون هناك خالق لهذا الوجود يحيى ويميت وهو الحى الذى لا يموت وسبحانه وتعالى القائل:

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ

(يس ـ ٣٦)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (الروم ـ ٢٠)

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الروم ـ ٢٧)

وخلق الإنسان معجزة من معجزات الله سبحانه وتعالى تدل على قدرته وعظمته وهو سر لم يدرك بعضه إلا فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى عندما أعلن كل من شيلدن وشوان عام ١٨٣٨ ميلادية ما يسمى «بالنظرية الخلوية» وهى تقول أن كل كائن حى يتكون من خلايا، وأن الخلية هى الوحدة التى يتكون منها الكائن الحى.

وخلق الإنسان من الموضوعات الأولى التى لابد، وأن يفكر فيها أى إنسان منذ طفولته ونشأته كيف وجد؟ وكيف يولد؟ ومن أين أتى؟ ويستوى فى هذا كل من الطفل الصغير، والعالم الكبير، غير أن لكلٍ طريقته فى إدراك ما يريد، وما تؤهله له قدرته العقلية ويهديه إليه مستوى علمه وتفكيره.

الطفل يسأل والكبير يقرأ ويدرس ويبحث مبتدأ بالبيضة والحيوان المنوى كيف يتكونان، وكيف يلتقيان ليكونا ما يسمى بالعلقة، وكيف تتكاثر الخلايا ثم كيف يتجمع بعضها مع البعض ليكون نسيجا ما ويتجمع البعض الآخر ليكون نسيجا آخر. ثم تتجمع الأنسجة مع بعضها لتكون الأعضاء. ثم تكون الأعضاء كلها لحنا جميلا متناسقا لا نشاز فيه يؤدى إلى ولادة كائن حى فضله الله على كثير ممن خلق تفضيلا. فسبحان الذى خلق الإنسان وكرمه ثم السبيل يسره وجعل له مالا ممدودا وبنين شهودا.

ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك من مئات السنين، ومن قبل أن يصل العلم ويدرك العلماء بعض أسرار ذلك التكوين. إذ أن علم التشريح لم يتقدم تقدما ملحوظا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى، بينما استمر علم الأجنة ثابتا كما هو منذ عهد أرسطو أى قبل الميلاد، وذلك بأكثر من ثلاثمائة سنة تقريبا. وما ذلك إلا لأن المعتقدات الدينية فى القرن السادس عشر كانت تحول بين العلماء ورغبتهم فى فحص الأجنة التى كانوا يعتقدون أن الله قد أخفاها عن الأعين لحكمة خاصة. ولا يجوز للإنسان أن يبحث ويكشف النقاب عما أخفاه الله.

ولكن الإسلام لا يقر هذا فهو يدعونا إلى أن نبحث ونتعلم ونقف على أسرار خلقه وعظمته وقدرته، ولم تذهب بعيدا وأن أول ما نزل على سيد البشر بعد عبادة حقة وتفكير عميق استمر ليالى وأياما فى غار حراء عندما أتاه الروح الأمين طالبا منه أن يقرأ، وعندما يقول له النبى ما أنا بقارئ فيغطه جبريل عليه السلام حتى يبلغ من النبى الجهد ثم يرسله، ويكرر السؤال، ويتكرر رد الرسول صلوات الله عليه حتى إذا كانت المرة الثالثة يقول جبريل:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق ١ ـ ٥)

ها هو الروح الأمين يطلب من النبى أن يقرأ باسم الله الذى خلق الإنسان من علق وأن يقرأ باسم الله الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

وتلك هى الرسالة الأولى من السماء إلى الأرض من الله سبحانه وتعالى إلى خلقه وعبيده الذين أراد لهم العزة كل العزة بالقراءة وتنتهى بالعلم وتدعو الى التعلم بالقلم حتى يتعلم الإنسان ما لم يعلم.

وهنا تظهر الدعوة الإسلامية فى صورتها المنطقية الواضحة القوية فى أسلوبها السهلة فى فهمها. وإلا فما الحكمة فى أن يكون أول ما يوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام :

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

وهل هناك ما يشغل بال الإنسان مهما كان العصر الذى عاش أو يعيش فيه أكثر من خلقه وتكوينه. ثم ليزيده اطمئنانا ومعرفة بربه يدعوه إلى العلم والتعلم وأنه سبحانه وتعالى علم الإنسان ما لم يعلم، وأنه خلق الإنسان علمه البيان.

وعن معجزة خلق الإنسان يوضح القرآن كيف يسلك العبد طريق الإيمان استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

(الطارق ٥ ـ ١٠)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

(المؤمنون ١٢ـ١٤)

دين كهذا يكرم العلم ويحض على التعلم ويدعو إلى معرفة الخالق عن طريق معرفة مخلوقاته كيف وجدت؟ وكيف نشأت؟ لهو الصراط السوى حيث لا لبس ولا غموض بل دراسة وتعلم وبحث وتفكير. وقد كانت لى فرصة لم تتح لكثير ممن يشتغلون بالعلم. فأنا منذ بداية حياتى العلمية اشتغل بعلم الأجنة أدرس وأبحث وأقرأ محاولا أن ازداد فى كل يوم علما، فأعلم ما أتعلم وأحدث تلاميذى بما أرى، بل أريهم ما أرى من تكاثر للخلايا وتشكل لها ثم كيف تسير هذه الخلايا فى طريق مرسوم واضح لا تحيد عنه أبدا لتعطى ما خصصت له من كائنات حية.

فكنت أرى فى كل خلية آية، وفى كل علقة آية تحكى قصة كاملة متكاملة لتكوين كائن حى، يبدأ بالعلقة ثم بالمضغة المخلقة وغير المخلقة إلى تكوين العظام، ثم كسوتها باللحم.

وأنى لأدعو أى إنسان ليرى بنفسه نموذجا سهلا لهذا التكوين فى بيضة الضفدعة التى يوجد الكثير منها فى مجارى المياه فى ريفنا أثناء فصلى الصيف والربيع. فليراقب هذه البيضة وليسهر معها ما استطاع ليراها، وهى تنقسم، وهى تتشكل، وهى تنمو، وهى تتحرك فقد يتعب هو من المشاهدة، ولكنها لا تتعب هى من الإنقسام والنمو وقد تأخذه سنة من النوم فينام حتى إذا انتبه من نومه ونظر مرة أخرى ثانية لعرف أنها لم تنم، كما نام هو وهى لم تركن الى الراحة كما أخلد هو إليها بل كانت مستمرة فى نموها وتخلقها فسبحان الذى أودعها تلك القوة وتلك القدرة. وأن من يعمل فى هذا المجال من العلوم لابد وأن يدرك أن هناك قوة عليا مفكرة مدبرة تدبر أمر كل تلك الكائنات ويعترف أرسطو (فى القرن الرابع قبل الميلاد) ذلك العالم الكبير بوجود تلك القوة العليا قائلا لابد وأن تكون موجودة تحرك المادة الحية التى لا شكل لها فتخلق منها كائنا حيا ينبض بالحياة. ولم يصل أرسطو إلى رأيه هذا إلا بعد أن درس جنين الدجاجة، وكيف يتكون داخل البيضة، وكيف ينمو داخلها، وكيف ينبض قلب الجنين فى اليوم الثانى من أيام الحضانة ولما تنمو الخلايا العصبية بعد عندئذ أدرك

أرسطو أن القلب ينبض بتأثير قوة خفية لا يفهم كنهها ولا سرها إلا الذى خلقها وخلق الإنسان من طين.

ولا زلنا نحن فى عصرنا هذا بعد أربع وعشرين قرنا نؤمن بما آمن به ارسطو. إذا لم يصل العلم بعد إلى سر ذلك النبض الذى يبدأ وئيدا ثم يستمر رتيبا، والجهاز العصبى لم يتكون بعد بل والكائن الحى نفسه لم يتخذ شكله السوى.

وإذا كانت الآيات التى تتحدث عن خلق الإنسان كثيرة وعظيمة فإن هناك آيات أخرى كثيرة وعظيمة تدعو إلى التفكير فى الكون وجماله، وفى الدنيا وما فيها وفى الإنسان وأحواله، وفى الطبيعة أرضها وسماؤها، نجومها وأقمارها، وما يدب على الأرض من حيوان وما ينبت فيها من نبات، وفى تعاقب الليل والنهار لنرى آية الله فى كل شئ وعظمته فى كل ما خلق وقدرته سبحانه وتعالى فى كل ما هو موجود فى هذا الوجود. فنؤمن عن عقيدة بعد دراسة وبحث وتفكير لتكون عقيدتنا ثابتة راسخة ويكون إيماننا يقينا متينا وإسلامنا قويا واضحا. كيف لا وآيات الكتاب وما به من آيات العلم على وجه الخصوص كثيرة استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ (العنكبوت ٢٠)

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (يونس ١٠١)

وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا (البقرة ٢٥٩)

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ (يس ٣٣)

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ (يس ٣٦)

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ (فصلت ٥٣)

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

(يوسف ١٠٥)

ولا يقف القرآن الكريم عند هذا الحد من الدعوة إلى العلم بل يحض عليه ويدعو إلى الاستزادة من العلم والتعلم، فيقول سبحانه وتعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ (طه ١١٤)

ويقول جلت قدرته

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ (النساء ١١٣)

ويقول سبحانه وتعالى ليفتح باب العلم والبحث على مصراعيه أمام كل راغب فى العلم والبحث

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ (الإسراء ٨٥)

ويؤكد القرآن الكريم فى أكثر من آية أن العلم وحده هو الشاهد على وجود الله ووحدانيته وأن العلماء هم أول من يعلمون عن يقين أن الله حق. وهم أول من يؤمنون بربوبيته وقدرته وهم الشاهدون على قدسيته وعظمته. أستمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

(النساء ١٦٢)

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ (الرعد ٤٣)

يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ (المجادلة ١١)

وغير ذلك كثير وكثير عن فضل العلم والعلماء إلا فليقرأ القرآن من يريد المزيد.

ويقول النبى صلوات الله عليه (العلماء ورثة الأنبياء) ويقول فى حديث آخر (إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم)، ويقول على بن أبى طالب رضى الله عنه (العلم خير من المال،

العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم حاكم والمال محكوم عليه، المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق).

هذا قليل من كثير عن فضل العلم والعلماء وعما قاله القرآن الكريم، ومنه يتضح أن الدين الإسلامى والعلم توأمان وأن الدين لا يقف عقبة فى سبيل العلم بل يدعو إليه ويعتمد عليه ويشجع على البحث ويرغب فى التعلم بل، ويجعل العلم هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله سبحانه وتعالى والوقوف على عظمته وقدرته ومن عنده أدنى شك فى هذا فليقرأ القرآن الكريم ليرى أن لفظ العلم قد ذكر أكثر من مائة مرة وأن بالقرآن الكريم ما يقرب من سبعمائة وخمسين آية كونية وعلمية.

دين يعتمد على العلم والمنطق ويستند على البحث والدرس لهو دين حق لأن العلم هو البحث عن الحقيقة وحدها والحقيقة لا تحتمل النقاش أو الجدل.

هكذا كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الكون فيتعلمون منه ويقتنعون بصحة ما يعتقدون فيجدون فى العلم المعجزة، تلو المعجزة والدليل يشد أزر الدليل على قدرة الله ووحدانيته.

استمعوا إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه وقد أتاه أناس يسألونه عن الله سبحانه وتعالى فيقول: ما تقولون فى خشب قطع من الأشجار بلا نجار وأجتمع ثم كون سفينة تجرى فى البحر، وهى مشحونة بالأحمال مملوءة بالأثقال وقد أحتوتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس بها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها.

هل يجوز ذلك فى العقل؟

قالوا لا. قال أبو حنيفة يا سبحان الله إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد، ومجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها من غير صانع وحافظ؟ فقالوا صدقت وآمنوا بالله واعترفوا بوجوده وقدرته سبحانه وتعالى.

بل نقرأ قول الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو يسبح الله معترفا

بقدرته وعظمته فيقول: «انظروا إلى النملة فى صغر جثتها ولطافة هيئتها. لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على أرضها ووصبت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعدها فى مستقرها تجمع من حرها لبردها. وفى ورودها لصدورها. مكفولة برزقها، مرزوقة بوفقها. لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان ولا فى الصفا اليابس والحجر الجامس، ولو فكرت فى مجارى أكلها فى علوها وسفلها وما فى الجوف من شراسيف بطنها وما فى الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجبا ولقيت من وصفها تعبا. فتعالى الله الذى أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها. لم يشركه فى فطرتها فاطر، ولم يعنه فى خلقها قادر.

ولو ضربت فى مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شئ وغامض اختلاف كل حى. وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوى والضعيف فى خلقه إلا سواء».

واذا كان الإسلام يدعو الى العلم ويحض عليه فإنه أيضا يكرم الإنسان فى محكم آياته ويضعه فى المرتبة الأولى بين سائر المخلوقات استمعوا لقوله تعالى:

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾. (الإسراء ٧٠).

ويقول سبحانه وتعالى:

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ (التين ٤)

ويقول جلت قدرته:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

(البقرة ٣٠)

ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا ملائكته:

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ (الحجر ٢٩)

وعندما يريد الله أن يكرم آدم كرمه بالعلم، وفى تكريم آدم بالعلم تكريم للعلم ودعوة للعلم والتعلم، وهكذا يعلم سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، ويسأل ملائكته أن

أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ (البقرة ٣١)

بل استمعوا الى القصة كلها كما يحكيها القرآن الكريم:

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ (البقرة ٣٠ ـ ٣٢)

وهل هناك تكريم أكثر من هذا التكريم. يتحدث سبحانه وتعالى عن آدم بأنه خليفته فى أرضه خلقه وعلمه الأسماء كلها ثم يدعو ملائكته ليسجدوا له فتقول الملائكة:

أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ

فيقول سبحانه وتعالى

إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ (البقرة ٣٠)

وبالرغم من هذا التكريم والتعظيم لآدم عليه السلام يعصى ربه ويغوى، ولكن الله

الرحيم بعباده يعفو ويغفر أليس هو الغفور الرحيم. ويتوب الله على آدم كما يحدثنا القرآن الكريم:

وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

(طه ١٢١ـ١٢٢)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

(البقرة ٣٧)

وهنا يقف الإنسان قليلا ويفكر: أخطاء آدم... هكذا يحدثنا القرآن الكريم فما ذنب أبناء آدم كلهم فى تحمل وزر خطيئة ارتكبها أبوهم، ولماذا يعاقبون كلهم على هذه الخطيئة، وكما يقال لولا النجاة على يد السيد المسيح الذى فدى البشر جميعا بدمه الطاهر لكان مصير البشرية كلها إلى هلاك، وما ذنب من مات قبل المسيح... أيعذبون فى نار جهنم بذنب لم يقترفونه وجريمة لم يشهدوها، ولم يرتكبوها العقل يقول لا.. والمنطق يقول لا.. والعدل يقول لا.. وأرجع إلى الإسلام والقرآن الكريم فأقرأ فيه ما يعيد إلى نفسى اطمئنانها وما يضع الأمور فى نصابها. وهنا تظهر عظمة الإسلام وقوة دعوته. بل استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ (الإسراء ١٣ـ١٤)

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

(البقرة ١٣٤)

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (فاطر ١٨)

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ

(النجم ٣٩ ـ ٤٠)

وغير ذلك كثير وكثير مما لا يدع مجالا للشك فى أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون. وسبحانه وتعالى القائل:

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ (الأنفال ٥١)

هذا هو المنطق المعقول، وهذا هو العدل الذى لابد وأن يكون. وعندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يفضل داود وسليمان على كثير من عباده الصالحين فضلهما بالعلم أيضا استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

(النمل ١٥ ـ ١٦)

ولسليمان عليه السلام قصة طريفة مع بلقيس ملكة سبأ. وهى قصة يعرفها كل من قرأ القرآن أو استمع إليه. ولكن ما يعنينا هنا ونحن نتكلم عن العلم وسطوته وقدرته.

فعندما يقول عليه السلام كما يحدثنا القرآن الكريم:

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

فيقول عفريت من الجن:

أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

(النمل ٣٨ـ٣٩)

ولكن الذى عنده علم من الكتاب يقول:

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ (النمل ٤٠)

وهكذا استطاع الذى عنده علم من الكتاب أن يعمل ما لم يستطع عليه عفريت من الجن.

وإذا كانت هذه القصة استعراض لقدرة العلم فإن ما حدث بين موسى عليه السلام والخضر درس ليعلم من عنده علم أن هناك من هو أعلم منه وهكذا لا يقف. ولا يغتر بما وصل إليه من علم بل لابد وأن يستمر فى طلبه العلم ويقال فى تفسير البيضاوى أن موسى عليه السلام قال يارب إن كان فى عبادك من هو أعلم من دللنى عليه: قال سبحانه وتعالى: الخضر أعلم منك. قال موسى: أين أطلبه. قال سبحانه وتعالى: على الساحل عند الصخرة. قال موسى كيف لى به. قال سبحانه وتعالى: تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك. وهكذا تستمر القصة كما يحكيها القرآن الكريم فى سورة الكهف:

قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ (الكهف ٦٣ ـ ٦٨)

ويعده موسى بالصبر وعدم عصيان الأمر، وتسير الأمور، ويسيران وتستمر القصة من خرق لسفينة ركباها إلى قتل غلام لقياه ثم يهبطان قرية يأبى أهلها أن يضيفوهما

ولكنهما يجدا جدارا يريد أن ينقض فيقيمه الخضر، وفى كل مرة ينفذ صبر موسى عليه السلام، ويسأل حتى كانت المرة الثالثة والأخيرة فيحدثه الخضر بما غاب عنه وينبئه بما لم يستطع عليه صبرا وأنه ما فعل هذا إلا بناء على أمر من الله عز وجل. وهكذا تتم الحكمة من هذا اللقاء وهذه المصاحبة، وأنه يجب على الإنسان أن لا يغتر بعلمه وأن لا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه من الأمور فلعل فيه سر لا يعرفه أو حكمة لا يدركها، وأنه لابد وأن يسأل ليعلم ويصبر على ما لم يعلم ليزداد معرفة ويتعلم.

والإسلام فى دعوته يخاطب الفكر والعقل ويدعو الناس عن طريق التفكير والنظر والتدبر إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ثم هو فى نفس الوقت يندد بالذين ضلوا عن ذلك الطريق، ولم يستعملوا عقولهم فى الوصول إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى والإيمان بوجوده، ويحدثنا القرآن الكريم عنهم وقد عرفوا الحق:

لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ (الملك ١٠)

ويسأل سبحانه وتعالى من يتبعون الظن ويبتعدون عن اليقين فيقول:

قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾
(الأنعام ١٤٨)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾
(النجم ٢٨)

وينظر الإنسان نظرة أخرى إلى من جمد تفكيرهم وتحجرت عقولهم فلا يتعلمون ولا يبحثون مقلدين آبائهم وأجدادهم دون تمييز أو تفكير، ودون الإلتزام بشريعة الله التى شرعها لعباده، وهى أن ينظروا ويتفكروا ويتعلموا ويبحثوا. ويقول القرآن الكريم

عنهم:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ (البقرة ١٧٠)

ويقول سبحانه وتعالى عنهم فى آية أخرى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

(المائدة ١٠٤)

ولا يرضى الإسلام عن هذا الجمود فى التفكير ولا تقره الشريعة الإسلامية لأنها ترى فى هذا الجمود سلب لإنسانية الإنسان التى كرمه الله بها، ومنعه من استعمال حقه المشروع فى الحياة من أن يعلم ويتعلم، وينظر فى ملكوت السموات والأرض ويتفكر فى كل ما خلق الله ليميز بين الظلمات والنور، وحتى لا يضل عن سبيل الحق ويصدق فيه قوله سبحانه وتعالى:

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ (الأعراف ٢٨)

ويعلن الإسلام منذ نشأته الحرب على الجهل فهو يحث على تعلم القراءة والكتابة وهما دعامتان أساسيتان لكل من يطلب العلم. حتى أن المسلمون كانوا يطلقون سراح الأسير إذا علم عددا من المسلمين القراءة والكتابة. بل قد كانوا يجعلون تعليم القرآن مهرا للزواج.

وهكذا انتشر الإسلام ووصل المسلمون إلى مرتبة من الرقى لم تصل إليها أمة من الأمم وما ذلك إلا لأنهم تسلحوا بالدين والعلم فعرفوا الله المعرفة الحقة وتعلموا وعلموا

وكتبوا وألفوا فى شتى العلوم والفنون وحسبهم من الحوافز ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق ١ ـ ٥)

وفى هذه الآيات الكريمة يسوى سبحانه وتعالى بين أمرين عظيمين وهما خلقه لعباده ونعمة العلم والتعلم مشيرا بذلك إلى أن المخلوق الذى خلقه الله وكرمه إن لم يتخذ من العلم سبيلا فلا وجود له، ولا قيمة له ولا عزة فى هذه الحياة.

ويكرم الله العلم فى آية أخرى، وفى سورة أخرى فيقسم سبحانه وتعالى بالقلم فيقول:

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ (القلم ١ ـ ٢)

ولا يذهبن بنا الظن أن العلم فى نظر القرآن هو العلم بالشرائع فقط والعلم بالأحكام من حلال أو حرام وإنما العلم فى نظر القرآن والدين هو العلم بكل ما يفيد الإنسان فى حياته ولم لا؟ وقد جعله الله خليفته فى أرضه يعمرها ويستخرج كنوزها ويزرع أرضها ويحصد ثمارها، ولا يتم كل ذلك إذا أردنا أن نقول إلا بالعلم، فبالعلم الذى أساسه المعرفة والتجربة والبحث يصلح الزرع فينمو بل ويزداد فى نموه ويكثر ويزداد محصوله، وكذلك بالعلم الذى أساسه المعرفة والدراسة والبحث يصلح حال الحيوان فيقوى ويكبر ويزداد خيره ونسله، وبالعلم وحده بما فيه من خبرة وتعلم وبحث تزداد معاملاتنا المالية وتزداد بذلك موارد الدولة وازدياد الموارد دعامة كبرى من دعامات قوى الشعوب.

وهكذا يقال عن الطب والهندسة والصناعة، وغير ذلك من العلوم الأخرى والتخصصات الحديثة المختلفة التى يحسن بها حال المسلمون فلا جمود ولا ركود فى الإسلام ولا حدود تحول بين العقل والفكر البشرى، وما يصلح وما يفيد حتى الحرب

وتدريب الجيوش وعمل التحصينات للدفاع عن النفس والوطن علم يحث عليه الدين ويدعو له استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(الأنفال ٦٠)

ويقول سبحانه وتعالى:

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(التوبة ٤١)

ويقول الرسول صلوات الله عليه: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد).

ونحن المسلمين اليوم ما أحوجنا إلى أن نتعلم ونبحث في المجهول لنستزيد علما وقوة ويكون لنا شأن بين أمم الأرض ونكون قد أطعنا قوله سبحانه وتعالى:

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(الأنفال ٦٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

(سورة الحجر)